

نظرية الثقافة عند إدوارد سعيد

The theory of culture when Edward Said

إبراهيم بوخالفة

ibrahim bokhalfa

.University Center of Tipaza

الملخص:

الثقافة بما هي نمط من التفكير والسلوك، مسألة فلسفية شغلت الفلاسفة والمفكرين في كل العصور وفي كل المجتمعات، إذ على أساس هذه الثقافة أو تلك تتحدّد هويّة الأفراد والشعوب، وينبني شكل وجودها ويتعيّن موقعها ضمن الأمم والدول. ولقد كانت الثقافات الإنسانية متعلقة مع الأديان، ومؤثّرة فيها بشكلٍ لافتٍ. ومع تغير موقف الإنسان من الدين في عصر العلمنة والأنوار الغربية، وعولمة الأفكار، تراجعت العلاقة بين الدين والثقافة. وفي هذه الدراسة نحاول أن نعاين هذه العلاقة لدى مفكّر دينوي أمريكي، من أصول عربيّة، وهو إدوارد سعيد. فقد كان الشعب الذي ينتمي إليه هذا المفكّر ضحيّة ثقافة دينيّة متطرفة، أزاحته عن أرضه أساطير دينيّة قاتلة ومهينة للعقل والكرامة الإنسانية. بسبب أجل ذلك يُبلور إدوارد سعيد نظرية للثقافة منقاة من الفكر الديني، أساسها مبادئ العقل الخالص .

الكلمات المفتاحية : الثقافة؛ الهجنة؛ الامبريالية؛ العلمانيّة؛ الدينويّة .

The theory of culture when Edward Said Culture, as a mode of thinking and behavior, is a philosophical issue that has occupied philosophers and thinkers at all ages and in all societies, as on the basis of this or that culture the identity of individuals and peoples is determined, the form of their existence is established and their position within nations and states is determined. Human cultures were related to religions, and influenced them remarkably

With the change in man's attitude towards religion in the era of . secularization and Western enlightenment, and the globalization of ideas, the relationship between religion and culture retreated. In this study, we try to examine this relationship with an American secular thinker of Arab origins, Edward Said. The people to which this thinker belonged was the victim of an extremist religious culture, which removed him from the suckling of religious myths that are deadly and insulting to reason and human dignity. Because of this, Edward Said crystallizes a theory of culture that is purified from religious thought, based on the principles of pure reason

Keywords : . the culture; Hybridization; Imperialism; Secularism; Worldliness.

. مقدمة :

من أجل أن نبلور ملامح نظرية عامّة للثقافة عند الناقد الأمريكي-الفلسطيني إدوارد سعيد، لا بدّ من التذكير السريع بالسياق الثقافي والتاريخي الذي كان ذلك المفكر ينشط في إطاره في منفاه الاختياري أي في أمريكا. فتجارب الإنسان الماديّة، وعلاقاته مع المحيط الاجتماعي، كلّ ذلك يفرز إدراكا معيّنًا للعالم، يُنتج العقل البشري من خلاله تراثًا ثقافيًا.

لِنُذَكِّرْ أَوَّلًا أَنَّهُ أُجْتُثَّ مِنْ أَرْضِهِ وَهُوَ لَا يَزَالُ غَضًّا. لَا يَدْرِكُ مَعْنَى التَّارِيخِ وَلَا مَعْنَى الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَرَكَتْ نَدُوبًا عَلَى خَارِطَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ. كَانَتْ عَائِلَتُهُ تَقِيمُ فِي الْقَدَسِ الْغَرْبِيَّةِ، لَمَّا هُجِّرَتْ إِلَى مِصْرَ، ثُمَّ إِلَى لُبْنَانَ، ثُمَّ إِلَى الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَوْثَلًا لِأَفْوَاجٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْمُهَجَّرِينَ مِنَ الْأَقَالِيمِ الَّتِي آلَتْ إِلَى حُوزَةِ الْإِسْتِعْمَارِ الْأُورُوبِيِّ، أَوْ إِلَى السَّيْطَرَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ الَّتِي غَدَتْ مَرَهَقَةً بِالنِّسْبَةِ لِلْأَهَالِي. وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ، كَانَ الْعَالَمُ الْعَرَبِيُّ وَالْإِسْلَامِيُّ تَحْتَ وَطْأَةِ التَّغْيِيرَاتِ الْعَمِيقَةِ الَّتِي أَحْدَثَهَا الْإِسْتِعْمَارُ الْغَرْبِيُّ، عَلَى جَمِيعِ الْأَصْعَدَةِ. ثَقَافَاتٌ تُدْمَرُ، وَحَيَوَاتٌ تَوَادُّ، وَمَصَائِرُ تَرْتَهَنُ، وَأَقَالِيمُ تُتَزَقُّ، وَالْعَرَبُ مُعَيَّبُونَ عَنِ صَنْبِ الْعَصْرِ، فِي انْتِظَارِ مَا يُهَيِّئُ لَهُمْ عَلَى مَوَائِدِ الْكِبَارِ الَّذِينَ كَانُوا يَصْنَعُونَ حَدَاثَتَهُمُ الْمَدْمُورَةَ عَلَى تَحُومِ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ كَانُوا غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى تَمَثِيلِ أَنْفُسِهِمْ - كَمَا يَقُولُ مَارْكُسُ "الْأَبُ الرُّوحِيُّ لِلْبُؤْسَاءِ" -، فَهَمُ أَبعدُ مَا يَكُونُونَ قُدْرَةً عَلَى التَّأَثِيرِ الْإِيجَابِيِّ فِي الْأَحْدَاثِ، وَهَمُ أَكْثَرُ بُعْدًا عَنْ فَهْمِ مَا يُحَاكُ ضَدَّهُمْ. وَفِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالَةِ مِنَ الْوَهْنِ وَالْهَزِيمَةِ الرُّوحِيَّةِ تَكُونُ عَقْلُ إِدْوَارْدِ سَعِيدٍ، وَتَشَكُّلُ وَعْيِهِ النَّقْدِيِّ. هَذَا الْوَعْيُ الْمَتَوَقِّدُ حِمَاسَةً لِحُلُقِ أَرْضِيَّةٍ مَطْهَرَةٍ مِنَ الْمَصَالِحِ الْإِمْبَرِيَالِيَّةِ وَمَهِيئَةً لِلتَّفَاوُضِ حَوْلِ اسْتِعَادَةِ قِيَمِ الْعَدَالَةِ الْمُعَيَّبَةِ. وَنَسْجُوتُ فِي هَذَا الْمَقَالِ، الْبَحْثُ فِي مَسْأَلَةِ النَّظَرِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ لِذَلِكَ الْمَفْكَرِ الْفَرِيدِ مِنْ نَوْعِهِ، الَّذِي تَعَلَّمَ مِنَ الْمَنْفَى مَا يَتَعَدَّرُ تَحْصِيلَهُ فِي ظُرُوفٍ مَغَايِرَةٍ. فَمَا هُوَ إِذَا تَأَثَّرَ ذَاكَ الْمَنْفَى فِي وَعْيِ إِدْوَارْدِ سَعِيدٍ؟ مَا هِيَ الْعَوَامِلُ السِّيَاسِيَّةُ وَالثَّقَافِيَّةُ الَّتِي جَعَلَتْ مِنْهُ مَفْكَرًا مَتَمَرِّدًا عَلَى الْمَعْرِفَةِ الْغَرْبِيَّةِ الَّتِي خَرَجَ مِنْ

رحمها، ليتنكر لها، وينتقدها بمناهج غربيّة، ودنيويّة، جعلت منه خصما عنيدا وحرّونا لمئات المثقفين الغربيين؟ كيف تحوّل من مفكّر وديع إلى بروفيسور للإرهاب من منظور الأمريكيين؟ ذلك ما نأملُ إجلاءه من خلال هذا البحث المتواضع، في ظلّ وضع دولي يضجّ بالمتناقضات، وفي رحم نظام ألقى بجزء كبير من شعبه في المنفى، واستبقى الجزء الآخر في "قلب الظلام". فالبحثُ في نظريّة للثقافة مسألة بالغة الأهميّة في عصر غدا فيه الصراع حول الأفكار والثقافات والإيديولوجيات لا يقلّ أهميّة عن الصراع حول المصالح الماديّة؛ فالكائن البشري كائنٌ ثقافيّ بالدرجة الأولى، وتشكّل ملامح هويّته في ظلّ ثقافة معيّنة، يُرادُ لها أن تتواصل مع قيم الأسلاف، وتاريخهم، وأنماط عيشهم، دون الانفصال عن روح العصر. إنّ اهتمام الفلاسفة ونقاد الثقافة بهذه المسألة لا حدود له، والكتابات حول نظريات الثقافة لا يحصيها العدّ؛ غير أنّ جردَ نظرية للثقافة من منظور إدوارد سعيد موضوعٌ غير مطروق في حدود علمنا، وعلى أساس هذا النقص نوّد طرح الموضوع على بساط البحث..

2- هجنة الثقافة:

إنّ من إفرازات عصور التّنوير، والحداثة وما بعدها، تغيّر موقف الإنسان من أسطورة النّقاء الثقافي. لم يعد بالإمكان التّفكير في مسألة الثقافة على أساس جوهرانيّتها، وعدم احتمالها التّعلق مع كلّ الأجسام الأجنبية عنها. إنّ فرضيّة الحدود الإسميّة الفاصلة بين

القوميّات، كما بين الثقافات غدت حدودا وهميّة. فالأفكار أبعد ما تكون قابليّة لأن تُحشَر في الرّوايا المعتمدة للعقل الباطن. إنّها كائنات مهاجرة ومرتحلة على الدّوام وعابرة للحدود، ومنشبكة مع كلّ الفضاءات المحليّة والأجنبيّة. ومن هنا فهي في حالة تجدّد وتمدّد شاقوليّا وأفقيّا بشكل سرمدى. إنّها فضاء يحتمل كلّ الخطابات المتناغمة والمتناقضة، "فلا تعودُ هي ذاتها بمعنى ما، إلّا بقدر ما تكونُ ليست ذاتها"¹. تحملُ الثقافة، أيّما ثقافة، في أيّما زمان، عناصر من الماضي المنصرم، وأخرى هي ثمرة الحالة الرّاهنة، تشكّلت على أنقاض تلك التي أُتلفت شروطُ حياتها، وعناصر نبويّة تستشرفُ وضعا لاحقا، لم ينضج بعدُ، ولم تكتمل معاملة، فهو في حالة تخلّق وتفاعل مع الأفكار الوافدة. فإذا كان هنتغتون يُجادلُ بأنّ الثقافات الغربيّة والشرقيّة هي أشبه "بالحجرات المانعة لتدفّق المياه"²، فإنّ ذلك يبدو من منظور إدوارد سعيد مناقضا لطبيعة الأمور. فجدار برلين، والقضبان الحديديّة التي كانت تفصلُ بين الشرق الشّيوعي والغرب الليبرالي لم تمنع الانزلاق نحو التّمازج والتّفاعل الثقافي بين القطبين، بغضّ النّظر عن شكل هذا التّفاعل ومآله التّراجيدي .

"إنّ إحدى الخطوات المتقدّمة الكبرى في النّظرية الثقافيّة هي الإدراك الذي يحظى بإجماع شبه كوني بأنّ الثقافات مهجّنة وتعدّديّة، (...). حيثُ يتعدّد استجداء وصف توحيدي أو تخطيطي دقيق لفرادتها الخاصّة"³. فالبشر اليوم هم أكثر من أيّ وقت مضى حرصا على توحيد القيم، وتخطّي العتبات القوميّة، وتذليل الإكراهات العنصراويّة التي فقدت روعيّتها في

بيتها الأوروبي، وذلك من أجل إحداث فضاء ثقافي يحتضن تطلّعات الشّعوب نحو الحرّيّة والتّواصل المثمر بعيدا عن طموحات السياسيين وأطماعهم في الاستحواذ والسيطرة. وبعيدا عن دغمائيّة الأديان والتّفاسير الميتافيزيقية التي تعمّق غربة المثقّفين. ف"الدين كما هو الحال عند ماركس ونيتشهوايدر، هو التّنين المفاهيمي العظيم الذي يتوجّب على سعيد أن يقتله"⁴ (لأتمّ خطاب يوصّد الطّريق نحو البحث والتّقصّي، ويصرفُ العقل عن أسئلة الوجود الأكثر إلحاحا، على حدّ تعبير ويليام هارث).

في أحيان كثيرة لا تعبأ حركة الأفكار وتوجّهاها بالحدود الإيديولوجيّة والمعرفيّة التي يقيمها المشرفون على السياسات الثقافيّة وأطرها المؤسّساتيّة العالقة بالمركزيّة الغربيّة، والمتورّطة في الشّروط الامبريالي. وكثيرا ما تُفضّح تلك السياسات من أكثر أبنائها برا بها.

إنّ من أؤكد خاصيّات الثقافة، هي قابليّتها للانتشار السّريع. إنّها كالمرض المعدّي الذي ينتقل بين الجماعات، والشّعوب بسرعة قياسية. ف"العقائد والعادات والأدوات، وحتى الحكايات الشّعبيّة، وأدوات الرّينة، كلّها قابلة للانتقال من ثقافة إلى أخرى ومن شعب إلى آخر"⁵ (لا يمكن للبشر أن يتحكّموا في آليات انتشار الأفكار، فهي تصل إلى القلوب والعقول بمعزل عن إرادتهم. والثقافة، تكتسب، بما هي ديناميّة عقلية وشعوريّة حياة واستمراريّة على نحو يتعدّد تفسيره بشكل مقنع وحاسم، وتبدو تبعا لذلك مسيرة الثقافة وكأنّها تنمو بمعزل عن إرادة النّاس في كثير من الحالات. لقد شرّعت كتلة من القوانين القهريّة

بدءا من أواخر القرن التاسع عشر في المعسكر الاشتراكي لمنع تسرب الأفكار الليبرالية، داخل حدود دول حلف وارسو، بحجة مقاومة الامبريالية العالمية بزعامة أمريكا، لكن ذلك لم يمنع عملية المثاقفة من خلال كسر الحدود. ولو عدنا قليلا إل الوراء، لبدا لنا العالم الإسلامي، بدءا من القرن الثاني للهجرية عاجزا عن مقاومة رواسب الثقافات الوثنية للشعوب غير العربية التي انضوت تحت مظلة الثقافة الإسلامية من دون إسقاط تراثهم الذي يضرب بعمق في التاريخ الغابر لحضارات عريقة لا تقل أصالة عن الحضارة العربية.

إننا نعيش في عالم بلا حدود، وبلا أبواب موصدة. فالتعددية الثقافية اليوم تُشكل الأساس الحقيقي للهوية. وذلك لا يؤدي بالضرورة إلى السيطرة والعداوة. بل يؤدي إلى "المشاركة وتجاوز الحدود وإلى التواريخ المشتركة والمتقاطعة" (6) يحمل إدوارد سعيد في ذاته كل هويات العالم، وشخصيته هي ملتقى الثقافات. وكتاباته متعددة الأصوات. وإن ذلك لم يكن في يوم من الأيام مدعاة للكراهية من قبله، بين القوميات والإثنيات المتفاعلة في عالم مفتوح على كل القضايا القابلة للتفاوض. إنّ دعوى صامويل هنتنغتن إلى صدام الحضارات لا تتناغم إلا مع أصوات جماعة إثنية مُشبعة بحب الذات واحتقار الآخرين. إنها أصوات متورطة في عقابيل الامبريالية، مدفوعة بسلطة المصالح، والمركزية الأمريكية، سيّدة الألفية الثالثة. ما هو واقع بالفعل، أنّ كل الثقافات اليوم، وبفعل الامبريالية التي ورطت كل الكرة الأرضية في شباكها، متواشجة ومنخرطة بعضها في البعض، بحيث لا يمكن استجداء تحديد

خالص لأيّ لون من ألوان الثقافة نقياً. لا توجد "ثقافة منفردة ونقيّة محض، بل كلّها مُهجنّة ومولّدة، متخالطة متمايزة إلى درجة فائقة" (7) كما لا توجد تجربة ثقافيّة معزولة عن محيطها الخارجي. ذلك أنّ الأفكار لا تولّد من فراغ. إنّها ابنة التاريخ والجغرافية، كما أنّها تتخلّق في المجال الدنيوي، بما فيها تلك التي توصف بالميتافيزيقيّة، وعلى أيدي بشر موصولين بإرث تاريخي هجين، هو الآخر.

لقد جهد إيديولوجيو الحركة الاستعماريّة على تثبيت ثقافة الرّجل الأبيض في المستعمرات الأوروبيّة، وكانوا يأملون في تكوين جيوش من التّابعين والخناعين الذين يألّفون العبوديّة ويسعدون بها. إلّا أنّ جهودهم كانت تسير في الاتجاه المعاكس للأفكار المعلّبة التي سُوّقت في الميتروبول على أنّها وليدة العبقريّة الهندو-أوروبيّة، والتي أُريدَ لها أن تكون مصنّعة لثقافة الهزيمة لدى الملوّنين المستعمرين. غير أنّ ذلك لم يكن دقيقاً. لقد ولّدت الثقافة الغربيّة التي اجتهد المستشرقون على زرعها، بذور التّمرد، وأمدّت المستعمرين بأدوات المقاومة والممانعة، وأدّت بالتالي إلى تغيير كثير من القيم والمعتقدات التي ما كان الغرب يتوقّع اختفاءها، لما كانت تتمتع به من مناعة ظاهريّة.

لقد نشأت نزعة التّمحور حول الثقافة والعرق، التي تقوم على "منح الذات مميّزات تفضيليّة دون محاولة إثباتها" (8) على إثر احتكاك الغرب بأهالي المستعمرات. فقد كانوا ينظرون إلى تراثهم انطلاقاً من ثقافة الذات. "وأخذ الرّجل الأبيض ينظر إلى الشّعوب الأخرى ذات

الثقافات المختلفة والأجنبية عن تراثه على أنها متخلفة وهمجية، ويجب أن تُباد لتترك المكان لثقافة الغرب العقلانية المتطورة. ولم يكن الأوروبي الأبيض قادرا على تصوّر وجود حضارة حقيقية خارج حضارته، أو على تصوّر فكرة أن يكون هناك آخر مختلف عنه، مساو له في الإنسانية"9). لقد تطلّب تعديل هذه المركزية الصلبة سنوات عديدة من الصراع الدامي والحروب المدّرة بين المركز والهوامش؛ وأفضى ذلك إلى ما يُسمّى >>النسبية الثقافية<<، وتعني أنّه لا يصحّ الحكم على جانب تراثي مُعيّن، بأنّه في ثقافة ما، أدنى منه أو أعلى في ثقافة أخرى. إنّ وظيفة الثقافات مهما كان لونها السياسي وطعمها الإيديولوجي "هي أن تجعل حياة الإنسان أكثر أمنا وأكثر قابلية للاستمرار"10) وإنّ ثقافة ما هي قادرة على تحقيق هذه الوظيفة في مجتمع ما، وتكون غير قادرة على تحقيقها في مجتمع آخر. وهكذا يمكن ملاحظة أن كثيرا من الأفكار الغربية التي أقرّها عصر التنوير، وكانت من وراء نهضة الغرب الحضارية، وأريد لها أن تُسوّقَ إلى العالم الثالث عن طريق العولمة، هي مصدر اضطرابات اجتماعية خطيرة في المجتمعات العربية والإسلامية. وهذا ما ينكره منظّرو المركزية الغربية الذين يرفضون النّظر إلى ثقافة الآخر من خلال شروطها التاريخية والإيديولوجية والنفسية، ويصرون على اعتبارها تجارب ملحقة بالمصدر وتابعة له. لنلاحظ أولاً أنّ كمّا هائلا من العلوم الإنسانية تولّدت في أوروبا، وقلبت تصوّر الذي كونه الإنسان سان الغربي عن نفسه وعن إبداعاته الثقافية، ومركزه في الطبيعة. لقد شكّلت تلك الحقيقة حدثا فريدا

ومفاجئاً منذ مراحل التنوير الأولى. كان فلاسفة التنوير يقوِّضون أساطير الغرب، ويمدّونه بالمعرفة العلميّة الواعدة، وهي تلك التي تدّعي الإجابة عن كلّ أسئلة الوجود وتحقيق الرّفاه والسّعادة للرجل الأيُّض.

حملت تلك المعرفة دافعا قويّا لتحطيم كلّ ما من شأنه أن يوقّف الطّموح الغربي للسيطرة. لقد أمدّت تلك الرّوح الغربيّين بالفكرة التي مفادها أنّ الحضارة الغربيّة هي مركز العالم، وأنّ الرّجل الأيُّض بما حباه الله به من ذكاء ونبالة عرق لا بدّ وأن يكون سيّدا حيثما حلّ، ولا بدّ للأعراق الدّونيّة أن تخدم هذا الرجل وترضى بسيادته. لقد نشأت الحاجة لتمدّد الغرب جغرافيّاً من أجل خدمة أهدافه الاقتصاديّة وإشباع غروره ونرجسيّته. ومن هنا نشأ علم الاستشراق وعلم الانثروبولوجيا المولود الشرعي للاستعمار، وكلّ ذلك عزّز عقيدة التفوّق الاثني لدى الأوروبيين. وتتلخّص هذه الرّؤية "بموقف من يعتقد أن نمط حياته أفضل من الأنماط الأخرى كلّها"¹¹. وكان تعاظم ثقة الغربيين بأنفسهم إثر استرجاع الأندلس من أيدي المسلمين، وفتح أمريكا، والثّورة العلميّة. وهي الأحداث التاريخيّة المفصليّة التي شجّعت على التمدّد خارج الحدود من دون خسائر ولا مقاومة تُذكر بسبب التخلف الكارثي للشّعوب غير الغربيّة التي كانت عاجزة عن حماية مصالحها على كلّ الأصعدة.

لقد انبرى كثيرٌ من علماء الغرب للتّنظير لمشروع حضاري كوني يَبوِّء الغرب الصّدارة من دون منازع. فظهرت كتابات دو ساس ي ورينان وغويينو وغوستاف لوبون

وسرديات فلوبير وشاتوبريان وبيار لوتي وألبير كامو، وكلّها تعزّزُ مركزيّة إثنية لا هوادة فيها. وقد كان لهذا التّوجّه جذوره التاريخيّة والفكريّة منذ العصور الأولى للنّهضة. إنّ كوجيتو ديكارت "أنا أفكر إذا أنا موجود"، يعني من ضمن ما يعنيه تحوّل مركزيّة الكون من الذات الإلهيّة إلى الذات الإنسانيّة. وقد أسّس هذا التّحوّل إلى سقوط المعرفة الكنسيّة لتحلّ محلّها العلوم العقلية باعتبارها مصدرا للحقائق اليقينيّة. وتبعاً لذلك أصبح الإنسان مركز كلّ شيء، كما أضحي الغرب محور كلّ الكون، وأصبحت الحضارة الغربيّة هي الحضارة الإنسانيّة، وأدّى ذلك إلى استعلاء الرجل الأبيض على الأعراق الأخرى. إنّ عقيدة التّفوّق تلك نشأت من عدم تقبّل الرجل الأبيض لوجود ثقافة تختلف عن ثقافته. فكلّ تجارب البشر ملحقة بتجاربه، بل إنّها نسخة مُعيّبة ومشوّهة عن تلك التي عاشها هو. "إضافة إلى ذلك، إنّ المجتمعات البشريّة أو على الأقلّ المجتمعات الأكثر تقدّماً، نادراً ما منحت الفرد شيئاً عدا الامبرياليّة والعنصريّة والتّمرکز العرقي للتّعامل مع الثقافات الأخرى" (12) فالدولة الإسلاميّة على سبيل المثال، لم تعتمد إلى الهيمنة على الشّعوب غير الإسلاميّة، ولم تستعبد خصومها في بداياتها الأولى، بل استوعبتهم واحتضنتهم، لم تسقط عليهم تنميّطات تمييزيّة محفّرة، ولكن ما إن تحوّلت إلى امبراطوريّة مع أواخر العهد الأموي حتّى كشفت عن قدر كبير من العنصريّة والتّمرکز حول الإثنيّة، رغم معارضة الإسلام لذلك، باعتباره دعوة عالميّة لا يُلقي بالا للعرق ولا للطبقة ولا للجنس.

إنَّ معرفة الغرب بثقافات أغياره الأفارقة والآسيويين هي معرفة جمعها بواسطة الأنثروولوجيا. وهي معرفة تستندُ إلى تراث غربي من جهل الآخرين وعجز عن فهم عقليّتهم وأنماط تفكيرهم وعاداتهم وتقاليدهم، التي تختلفُ بالضرورة عن غيرهم. وفي الحقيقة، فإنَّ المستشرقين والأنثروبولوجيين والرحالة الذين انتشروا في فضاء المستعمرات الغربيّة لجمع المادّة الثقافيّة لم يكونوا على استعداد لفهم موزع دراساتهم، والتخلّي عن تحيّزاتهم الإثنيّة. لقد انطلقوا من مبدأ أفضليّة الذات فبدأ لهما الآخر غريبا ومدهشا، وأحيانا كثيرة مُعيبا وبربريا. ولقد رأينا أنّ شاتوبريان لما قدم في رحلة إلى الشّرق، كان يرفض التخلّي عن عادات بلده، ويرفض تعلّم اللغة العربيّة التي بدت له مجرّد أصوات صاحبة غير مفهومّة، لم ترتق بعدُ إلى مستوى اللّغات الهندو-أوربيّة. وإنّ كثيرا من المستشرقين اعتمدوا في دراساتهم على تجارب كتيبة من دون معرفة بلغة الشّرقين. إنّه موقف من يرفض الاختلاف ويرى فيه شذوذا عن القاعدة وعن الأصل. وبدل أنّ يتعاش الأوروبيون مع المحليين ضمن فضاء تعددي مُخصب، دعوا إلى أوربة الكرة الأرضيّة (Européanisation du globe terrestre) بشكل يُفضي إلى مطابقة كلّ الأجناس غير الأوروبيّة مع الغرب المسيحي¹³). إنّه موقف الإنسانويين الذين يسعون إلى توحيد الجنس البشري تحت مظلة العرق الأكثر تطوّرا وتُبلا، وهو العرق الهندو-أوربي. وقد استوحى هؤلاء الفلاسفة مبدأ وحدة النّوع الإنساني من الفكر المسيحي. ولكنّه مبدأ محرّف كما هو واضح. ذلك أنّ الأديان السّماويّة تؤمن أنّ

البشر على درجة واحدة من الكرامة، وما الاختلاف الثقافي بين الشعوب إلا نتيجة لاختلاف في التجارب الاجتماعية والمصائر التاريخية. يدرس الأنثروبولوجي الغربي الأجنبي "ليس من أجل أن يكتشفه في اختلافه الحقيقي، في مغايته الخام، في انزياحه الخاص، وإنما يدرسه ليؤكد فيه كل ما يثبت ويعيد إنتاج مركزته" (14). إنه موقف ينم عن تفكير أحادي قاصر، إذ أننا لو سمحنا بما يدعو إليه هؤلاء، أي تسريع التواصل بين الثقافة الغربية والهوامش، فإن ذلك من شأنه أن يفضي إلى اختفاء الفروق بين القوميات، وسنغدو إزاء حضارة ذات لون واحد، ولكن على حساب الشعوب الأقل تطورا. ذلك يعني أيضا تدمير ثقافات الشعوب المستعمرة وتحويلهم إلى تابعين بدون هوية ولا خصوصية تاريخية وثقافية، كما يبدو عليه الحال اليوم.

لقد أعمت المركزية الغربية الرجل الأبيض عن غنى وتنوع الثقافات الإنسانية. وحاول جاهدا منع عمليات المتاقفة والتّحاور الطّبيعي بين الحضارات، من باب إنكار فرضية استفادته من ثقافة الآخر. بيد أن ذلك لم يحل دون تواصل الثقافات وتلاقحها، حتى في حالات الاحتراب كما كان الشأن خلال الحروب الصليبية.

وأنا أجادل بأنّ مونتيسكيو لما صنع مخياله رجلا فارسيا في مواجهة المجتمع الباريسي، لم يفعل ذلك إلا من أجل "الاعتراض على الصورة التي يكوّنها عن نفسه المجتمع الباريسي" (15)، الذي بنى مجده على أساس مركزية حضارية لا هوادة فيها .

تتواصل الشعوب والأمم والثقافات في فترات لا تعرف التوقف. كما أنّ الأفراد ينتقلون في المكان والزمان، وخارج حدودهم بلا انقطاع. "فالنّفي والمجرة وعبور الحدود هي تجارب يمكن أن تُرَوِّدنا بأشكال جديدة للمسرد" (16). ولطالما أشاد سعيد بذلك النّقاد والمفكر المجري من أصل يهودي، أورباخ إيريك، الذي دفعته به مأسى الشتات إلى تركيا أثناء الحرب الكونية الثانية. لقد تمكّن من تأليف كتابه "محاكاة"، وهو في مكان لا يوفّر أدنى شروط البحث العلمي. إنّ وضعيّة المنفى التي انوجد فيها كانت دافعا قويّا ليؤلّف كتابا، ما كان ليُنجزه في ظروف مغايرة. إنّ حالة يكون فيها المرء "خارج المكان"، ومنفيا وهامشيا، بإمكانها أن تفجّر عبقرية حضارية هي أبعد ما تكون قابلية للتعيين (17) ومن هنا، يمكننا أن نحس تلك القرابة الروحية التي استشعرها سعيد تجاه أورباخ، وكونراد صاحب قصّة "قلب الظلام"، الذي عاش هو الآخر تجربة المنفى. يشعر سعيد بالقرابة الفكرية والروحية مع المنفيين، هو المفكر المنفي خارج حدوده، والذي ظلّ طيلة حياته يقاوم الشّروط الثقافية والدينية التي ألقت به في المنفى ولا تزال تعمل على تأييد منفاه .

المكون الديني في الثقافة:

من بين العوامل التي هيأت ترحيبا محمومًا بكتاب إدوارد سعيد "الاستشراق والمعرفة"، والذي صدر في مطلع الثمانينات، تلك القراءة الإيديولوجيّة لمضمونه، والتي رفضها صاحب الكتاب رفضا لا هوادة فيه. فقد اعتبره فصيل من المثقفين العرب دافعا عن الإسلام

والمسلمين ضدّ الهجوم الصّاعق للامبرياليّة الغربيّة على الدول العربيّة وعلى ثقافتها. ينطلق إدوارد سعيد في دراساته لصراع الحضارات "من عداء صريح للنزعة الجوهريّة، ومن التّشكيك الجذري بجميع التّعيينات التي تُقدّم كمقولات من نوع <<الشرق>> و <<الغرب>>، ومن حرص بالغ وشديد على عدم الدّفاع عن -أو حتّى مناقشة- الشرق والإسلام" (18). إنّ تحاليل إدوارد سعيد لكلّ قضايا المعرفة تستند إلى فكر علماني، يُقصي كلّ التّفسيرات الميتافيزيقية والإيديولوجيّة للتّاريخ. وإنّ ممّا تعلّمه سعيد عن فيكو "أنّ البشر هم الذين يصنعون التّاريخ الإنساني" (19)، وأنّهم -أي البشر-، لا يفهمون إلّا ما صنعوه بأيديهم. فالتفسير الدّينيّ التي يسقطها البعض على أحداث التّاريخ ما هي إلّا أقنعة تخفي الوجه البشع لمؤسسات السلطة وتبرّر الهيمنة. في هذا الصّدّد يخطّر بالبال السخرية اللاّذعة التي أثارها مقولة جورج بوش في مطلع التّسعينات والتي صرّح فيها أنّ الربّ هو الذي أمره بمهاجمة العراق. لقد كانت أمريكا تتحرّك بدافع مصالحها في المنطقة، لا دخل للتأويلات الدّينيّة فيما يجترحه البشر من مأس ي.

يستوحي إدوارد سعيد موقفه من الدّين من فكر كارل ماركس الذي يعتبر الأديان أفيون الشّعوب، اصطنعها الأقوياء من أجل تبرير هيمنتهم على المستضعفين. فهي تجعل النّاس أكثر انقيادا للسلّة والنّبلاء والأقوياء الذين يعود إليهم الحقّ في تشريع القيم، وأنماط السلوك ومعايير الأخلاق بشكل عام. إنّ الفئة التي تملك السلطة في المجتمع هي التي

تُحدّد مفهوم الخير والشرّ. أمّا بقيّة فئات المجتمع، فإنّها لا تملك القدرة ولا المشروعية المؤهّلة لتغيير مفاهيم الأخلاق في مجتمعها .

الخطاب الديني هو "وكيلٌ إغلاق يوصد الطّريق نحو البحوث التّقصّيّة" (20) وذلك تحديدا ما يرفضه النّقد الدّنيوي الذي يقف من النّصوص موقف التّشكيك والمساءلة. إنّ الدّين باعتباره شكلا من أشكال الثقافة، ومن منظور التفكير العلماني لدى إدوارد سعيد، يهيئ نظاما تبريريا للسلطة، ونظاما شرعيا يفرضُ الخضوع، ويكبّل عقل النّاقد، ويُجرّده من أدواته المعرفيّة والثقافيّة بشكل لا شفاء منه. إنّ الثقافة وبفعل تواطئها مع المعتقدات الدّينيّة توفّر موقعا لتشكيل الهوية، وتنميط التفكير والسلوك الذي يجسّد العادات والتقاليد والأعراف. إنّها تُنمّي الرّضى بتشكيلات جوهريّة عن الذات والآخر لا يمكن تجاوزها وتخطّيها. وهي على شاكلة الفوارق المانويّة بين "الشرق والغرب، والإسلام والحداثة، وأبناء العقل المستنير وأبناء الاستبداد الشرقي" (21) يرى سعيد أنّنا نعيش في عالم يعجّ بالصّراعات الإيديولوجيّة والدّينيّة، رغم ما يبدو من أنّنا تحرّرنا من كلّ الصّنميّات. "ليس صحيحا أنّ مجتمعاتنا العَلَمانيّة خالية تماما من المقدّس. بل مجرد المسألة هو كونه لم يعد مجسّدا في العقائد، ولا في أضرحة القديسين، بل في حقوق البشر". لقد صنع الإنسان آلهة متعدّدة، واتّخذ منها نقطة ارتكاز، وعبأ بها الفراغ الذي أحدثه انسحاب الإله الذي صنّعه الكنائس

إنّا نعيش في عالم يزخر بالآلهة. للقوميين إلههم وللماركسيين إلههم وللمسيحيين إلههم، والقائمة أبعد ما تكون عن النهاية. تعمل الدّولة القوميّة دون نصب "الحلق وإنتاج نقاوة الشعب،)....(، تخلق اختلافات عرقية، وتقيم حدودا، وتعيّن موضوع السّيادة الحديث وتدعمه"22). وكذلك تفعل الدولة الشيوعية باسم إلهها تقاتل أخريها، وتحشرهم خارج التاريخ. إنّ المشاركة والأفارقة، وغير الآسيويين ليسوا إلّا عناصر مكوّنة ضروريّة "لتشكيل الأساس السلي للهيّة الأوروبيّة بالذات"23). لهذا يرفض إدوارد سعيد كلّ أشكال التفكير الجوهراني، الذي يستند لأسس ميتافيزيقية أو إيديولوجية. إنّّه يرى أنّ الضّمانة الوحيدة للمثاقفة الإيجابية والتّعايش المشترك، هو التفكير خارج إطار تلك الكيانات التي تفضي إلى العداء والكراهية والتّمييز.

قدّمت لنا حركة ما بعد الحداثة اعتراضها المشروع والحاسم على أحاديّة الرّؤية الحداثيّة الشموليّة للكون. "إنّ الحداثيّة المعتبرة بصورة عامّة اتّجّاهها وضعيا وتقنيا مركزيا وعقلانيا، جرث ممهااتها مع الاعتقاد بالتّقدّم الخطّي المستقيم وبالحقائق المطلقة وبالتّخطيط العقلاني للنظم الاجتماعية المثالية، وكذلك بتنظيم وقوينة المعرفة والإنتاج"24) هكذا أزعجت الحداثة الأديان بأشكالها التقليديّة عن المعرفة العلميّة، لتصنع آلهة من نوع آخر لا تقلّ سوءا عن الأولى. ولذلك، تحلّى النقد ما بعد الكولونيالي عن مشاريع الحداثة في مجال الثقافة والحياة بشكل عامّ. لقد أبانت القوميّة عن وجهها القبيح بما أثارت من حروب إثنيّة

وصراعات إيديولوجية لا خلاص منها. إنها تقوم بعمل يتجاوز ربط الناس بعضهم ببعض. "إنها تنتج وتقمع الاختلافات الثقافية بطرق بغضه" (25). فالشرق والغرب لا يلتقيان أبداً، والهوة التي بينهما لا يمكن ردمها مطلقاً. إن الملونين من تركيبة بشرية منقوصة، ولا يمكن أن يتجاوزوا قصورهم الأنطولوجي. يمكن للأوروبيين أن يهدّبو من طباعهم نسبياً، ولكن ليس إلى حدّ اللحاق بالرجل الأبيض. هذه هي الثقافة التي جهد الغربيون من خلال سردياتهم لتكريسها باعتبارها ثقافة عالمية. وقد كانت الرواية، اعتباراً من القرن الثامن عشر، هي الحامل الأساس لعقيدة التفوق الغربي على الأعراق الملونة، وقد عزز العمل التبشيري هذه الإرسالية.

إننا نعيش في عالم بلا حدود وبلا أبواب موصدة. فالتعددية الثقافية اليوم تشكل الأساس الحقيقي للهوية؛ وذلك لا يؤدي بالضرورة للسيطرة والعداوة؛ بل يؤدي إلى المشاركة وتجاوز الحدود، وإلى التواريخ المشتركة والمقاطعة" (26). فإدوارد سعيد يحمل في ذاته كلّ هويّات العالم. وشخصيته هي ملتقى الثقافات، كتاباته متعددة الأصوات. وإنّ ذلك لم يكن في يوم ما مسوّغاً للكراهية بين القوميات والإثنيات المتفاعلة في عالم مفتوح على كلّ القضايا القابلة للتفاوض. وإنّ دعوى صامويل هنتنغتون إلى صدامات الحضارات لا تتناغم إلا مع جماعة إثنية مُشبَّعة بحبّ الذات واحتقار الآخرين. إنّ ما هو واقع بالفعل أنّ كلّ الثقافات اليوم، وبفعل الامبريالية التي ورّطت كلّ زوايا اليابسة في شراكها، متواشجة ومنخرطة بعضها

في البعض، بحيث لا يمكنُ استجداء تحديد خالص لأيّ لون من ألوان الثقافة بشل خالص.

لا توجد "ثقافة منفردة ونقيّة محض، بل كلّها مهجّنة، مولّدة، متخالطة متمايضة إلى درجة

فائقة" (27). عندما يسرد فلووير تجاربه العاطفيّة وغير العاطفيّة انطلاقاً من الشّرق، فإنّه

بذلك يُنتج مسارد هجينة، مهما كانت مركزيّته حول إثنيّته طافحة. إنّهُ بذلك ينقلُ مشاهد

ثقافيّة عن الشّرق والشرقيّين إلى الحاضرة الغربيّة. هذه المشاهد، منقولة بعدسة الرّحالة

والمستشرقين، والأدباء الفرونكفونيين إلى المخيال الغربي، من شأنها أن تنتج وعياً حضاريّاً

كوتياً يجمع شتاته من كلّ البراري.

لا تجدُ اليوم ثقافة معزولة عن محيطها العالمي؛ ذلك أنّ الأفكار لا تولّد من فراغ

تاريخي. إنّها ابنة الزّمان والمكان. كما أنّها تتخلّق في المجال الدّنيوي، وعلى أيدي البشر

الموصولين بإرث تاريخي معيّن وهجين هو الآخر.

الثقافة والامبرياليّة:

إنّ ممّا ترتّب عن تمدّد الامبراطوريّة الغربيّة في القرون الأخيرة على الجزء الأكبر

من اليابسة، أنّ الثقافات العالميّة كلّها فقدت عذريّتها وتخلّت عن طهرّيّتها لتتغلغل في لعبة

المصالح والمصالح المضادّة. "ولأنّ السرد يلعبُ دوراً كبيراً في المسعلاامبريالي، فليس من

المفاجئ في شيء أنّ فرنسا و(خصوصاً) إنجلترا تمتلكان تراثاً غير منقطع من الكتابة الرّوائية

لا نظير له في أيّ مكان آخر" (28). لقد تفجّرت عبقرية الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في شتى مجالات المعرفة الإنسانية، من أجل مواكبة وتعزيز دور الإمبراطورية المتعاضم. فإذا كانت الرواية أهمّ تجلّيات العبقرية الغربية، وأكثرها جاذبية، وأبلغها تأثيراً على الأحداث آنذاك، إذا كانت تلك الرواية هي أبلغ أشكال الثقافة تعبيراً عن مصالح الإمبراطورية خارج وداخل حدودها، فلم يعدّ بالإمكان التفكير فيها خارج ذلك الإطار الطبّاق. لم يشهد أيّ عصر من العصور الغربية ما شهدته العصر الكولونيالي من إنتاج روائي ومعرفي. بل إنّ فروعا معرفية بأكملها، كانت النتيجة الطبيعية لحاجة الغرب للتّمدّد خارج حدوده. خذْ على سبيل المثال علم الإناسة. لقد كان هذا الفرع العلمي المولود الشرعي للاستعمار.

"بإمكاننا الرّغم أنّ الاستعمار ليس إلّا حالة من حالات التّثاقف المختلفة" (29). لقد حوّلته انثروبولوجيو القرن العشرين إلى حالة من حالات الاحتكاك الثقافي بين أوروبا وآخريها. بيد أنّه احتكاك لم يُفضِ إلّا لمزيد من التّمرکز حول الثقافة من جانب أوروبا.

"لقد قامت هذه التّمرکزية بمراكمة التّجارب والأراض ي والشّعوب والتّواريخ ودرستها وصنّفتها،).....(وأتاحت لرجال الأعمال الأوروبيين القوّة أنّ يخطّطوا ويكيدوا بجلال" (30). وأكثر من ذلك فإنّ هذه المراكزية، ومن أجل تسويق إيديولوجيتها وتسويق عنصريتها، عملت على إضعاف ثقافة مستعمرها ونفي هويتهم، وتنزيلهم إلى أدنى مراتب

الوجود ليتحوّلوا إلى أدوات غير واعية لإنجاز مشروع أوروبي مسيحيّ. ومن أجل تأييد هذا المشروع وتسويغته، قامت الثقافة الغربيّة ذات التّمرکز العالي بـ"ترميز وتقنين ولحظ كلّ ش يء يتعلّق بالعالم غير الغربي أو الأطرافي(31) ونتج عن ذلك كمّهائل من الكليشيهات والتّنميطات المحفّرة، والتي يصعبُ الخروج من سلطتها، بفعلقوة الثقافة الأوروبيّة التي عملت على التّمكن لها عالميًا. لقد كان ذلك ضروريًا من منظور الفكر الاستعماري، من أجل التّرويج لثقافة كونيّة أحاديّة التّوجّه، وهي بلاشكّ ثقافة الرّجل الأبيض. "لم تقف المركزيّة الغربيّة عند حدود تقديم رؤيا للعالم، بل تقدّمت بمشروع سياس ي على صعيد العالم هو مشروع تجانس الإنسانيّة المستقبلي من خلال تعميم النموذج الغربي. وخطورة هذا المشروع أنّه سوّع منطقيًا التّوسّع الغربي وإبادة حضارات، وأحيانًا إبادة شعوب بأكملها"(32) كما هو الشّأن بالنّسبة لشعوب أمريكا الأصليين، والأقليات المسلمة بجمهورية يوغسلافيا سابقا، وكما يحصل الآن مع عرب فلسطين تحت أعين الغرب.

ليس صحيحا أنّ الحديث عن الامبرياليّة، والمركزيّة الغربيّة، والكولونيالية هو حديثٌ عن الماضي ي. بل إنّ حديثٌ في صميم الحاضر. إنّ الرّغبة في السّيطرة على الشّعوب المستضعفة من غير الأوروبيين لا تزال محمومة؛ بل إنّها أكثر إلحاحا ممّا كانت عليه في القرن التّاسع عشر. إن المعطى الذي تغيّر عن ذي قبل هو أدوات الهيمنة، ووسائل الإخضاع، وسياسات الاحتواء. لا يزال عصر الامبراطوريّة "يمارس تأثيرا ثقافيًا بالغًا في الوقت

الحاضر)³³، غير أنّ زعامة النظام الدّولي الجديد انتقلت من أيدي أوروبا إلى أيدي أمريكية، وهي كما نعلم أشدّ بأساً وتدميراً لا هوادة فيه. كما أنّه لا يزال يمثل الرّكيزة الأساسيّة للنّظرية الثقافيّة المعاصرة في الغرب وفي غير الغرب.

كانت القوى العظمى في مطلع القرن الثامن عشر، وإلى غاية النصف الأوّل من القرن العشرين، تعتمد على القوّة العسكريّة كوسيلة إخضاع أساسيّة، مع عدم إغفال الجانب الثقافي، لما له من أهميّة بالغة الخطورة في تحديد موازين القوى.

وانطلاقاً من هذا التّطوّر، وإيماناً بجدوى الأفكار، اصطحب نابليون بوناپارت كوكبة من العلماء الخبراء في كلّ مجالات المعرفة، من أجل تهيئة الأرضيّة لغزو مصر من دون مجهود حربي مكلف. ولقد تمكّن من إقناع رجال الأزهر وأعيان البلد بأنّه لم يأت غازيولاً فاتحاً، إنّما جاء لمساندة المصريين في خلافهم مع العثمانيين. كما جاؤوا من أجل إطلاق مكنة التّحديث في الشرق المتخلّف. لقد بدا وكأنّ المصريين صدّقوا قادة الحملة الفرنسيّة، بحيث أنّهم لم يُبدوا أيّة مقاومة ضدّ الوجود الأجنبي. والواقع أنّ حضور فرنسا في مصر كان من أجل منافسة البريطانيين الذين كانوا يطمعون بمستعمراتهم في آسيا وإفريقيا.

من أجل أنّ يُعزّز الفرنسيون حضورهم في الشرق من دون أن يستفزّوا مشاعر المحليين، راح شعراؤهم يمجّدون شجاعة الفرنسيين ومنجزاتهم التي يباركها الرّب على حدّ تعبيرهم. إنّ مآثرهم في أرض التّبوّات لأثيرة، وإنّ أنفاسهم لمخضبة، وإنّ حضورهم للمهمّ.

راحوا يتغنّون بمشروع القناة، وهو عملٌ ضخمٌ يُحسبُ لهم، وكان من شأنه أن تثبت أقدامهم في الشرق لأمد طويل. إنّ حضور فرنسا بخبرائها وعلمائها وسياسيها، وحضور بريطانيا في الهند وفي بعض دول الخليج، هو من أجل خدمة المصالح الامبريالية ما في ذلك من شكّ. وقد ذهب سعيد "إلى أنّ الثقافة المهيمنة في الغرب تحقّق هيمنتها بالتّعمية على الانتسابات الحقيقية التي تجمع بين عالم الأفكار والبحث الأكاديمي من جهة، والقوّة العسكرية وسلطة الدّولة والشّركات من جهة أخرى" (34). إنّ هذا الرّبط هو عينه الذي جسّدته الحملة الفرنسيّة على مصر. فالعلماء والباحثون الذين رافقوا الحملة مطالبون بالتّعمية على الأهداف الحقيقية التي لا تكاد تخفى على الإدراك، من وراء المسعى الامبريالي. إنّ الخطابات التي أنشأتها مؤسّسة الاستشراق داخل التّمثيلات الجماليّة، وعبر النّصوص الاقتصاديّة والسوسيولوجية والانثروبولوجية والفلسفية قد أُستُخدمت لاستعمار الشرق. وقد تكفّل سعيد في نقده ما بعد الكولونيالي والتّفكيكي للمعرفة الغربيّة حول الآخر بكشف الدور المتواطئ للمعرفة الأوروبيّة والتاريخ الاستعماري الغرب (35). إنّّه يكشف أنّ التّمثيلات الاستشراقيّة ليست تص ويرات طبيعيّة للشرق. بل هي ما يؤسّس عماد علاقة من القوّة والسيطرة والمهيمنة الاقتصاديّة على المستعمرات خدمة للأوروبيين.

إنّ عهد الكولونيالية قد ولّى بشكل كليّ تقريباً، باستثناء الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين الذي يراعاه الغرب، بشكل لافت ومخير، وذلك منذ تخلّت أوروبا عن مستعمراتها

تحت ضربات المقاومة المحليّة. إلّا أنّ الامبريالية، باعتبارها "الممارسة النظريّة، ووجهات النظر التي يملكها مركز حوضيّ مسيطر يحكم بقعة من الأرض قصيّة" (36)، لا تزال تتعرّز، وترتقي إلى مصافّ الثقافة العالميّة، والرسميّة في أوساط الشّعوب المتخلّفة. سبب ذلك أنّ كوكبة غير يسيرة من المثقّفين العالمثالبيين تعتقد أنّهم في حاجة مُلحّة لحضور الغرب وانخراطه في حياة الشّعوب التي تعرّضت للاستعمار، ثمّ فوجئت بتخلّيه عنها. لقد دُمّرت ثقافتها الشّعبيّة بدعوى مقاومتها للمسعى الحداثي على النّ مط الغربي. لا تزال مفردات الثقافة الامبرياليّة العريقة للقرن التاسع عشر تحفلُ بألفاظ وتصوّرات من مثل "دوني" و"أعراق تابعة ومحكومة" و"غير قادرة على حكم نفسها"، وما شابه ذلك من كليشيهات أنتجها الفكر الاستشراقي الحديث، وعمل على تأييدها بشكل لا شفاء منه (37). إنّ تلك التّشكيلات العقائديّة توحى بأنّ شعوبا مُعيّنة تتوسّل الحضور الغربي المباشر، ولا تتورّع عن التّخلّي عن موروثها الحضاري، والتّماهي المطلق مع ثقافة الأجنبي. إنّها تتعلّل بحاجتها الملحّة للعون الاقتصادي والتّكنولوجي، بينما هي تريد أن تحافظ على مواقعها السياسيّة الاقتصاديّة، من خلال حلفها المقدّس مع زعماء الامبرياليّة. في مثل هذه البيئة المحتدمة، تنشأ ثقافة الهزيمة التي يتصدّى لها إدوارد سعيد بكلّ شراسة. إنّّه يفضّح سياسة التّابع التي تتبوّأها السّلطة الفلسطينيّة بزعماء يأسر عرفات، كما يفضّح عدوانيّة المسلك الامبريالي في تزوير حقائق التاريخ، والسّطو على مصائر الشّعوب. خاتمة:

يمكنُ استجلاء ثلاثة أسس ترتكز عليها نظريّة الثقافة لدى سعيد، وأولها

أنّ الثقافة الغربيّة في القرون الماضية مشروطة بمسيرة الامبرياليّة العالميّة؛ إذ لا يمكنُ الحديث عن إحداها بمعزل عن الأخرى. إنّ رجال الفكر والفنّ ورجال القانون ومنظري الأخلاق، كلّ هؤلاء يُقدّمون رؤيا للعالم من خلال إبداعاتهم ومساردهم وعلومهم، وإنّ انتماءهم إلى حضرة غربيّة ذات مصالح جليّة خارج حدودها، ليست حقيقة خاملة. كما أنّ هيمنة المبراطوريّات الغربيّة في القرون الماضية على مستعمرات في كلّ بقاع الأرض، هي الأخرى ليست حقيقة خاملة بالنّظر إلى طبيعة الثقافة التي ستصدر عن علماء الغرب. إنّها تعني من ضمن ما تعنيه، أنّ الثقافة الغربيّة على تنوّعها، وتباين مواقفها من الأغراب ستقحم نفسها في ثقافة شديدة الاشتغال مع الثقافات الغربيّة عنها. وإنّ هذه المواقفة التي قد تأخذ شكل صراع محموم أحيانا، ومهادنا أحيانا أخرى، ستفضي إلى فكر هجين يستمدّ عناصر قوّته من تعدّد عناصره وتنوّعها. لقد اغتنّت الآداب الغربيّة أيّما اغتناء، في عصور النهضة الأولى على الخصوص من خلال تفاعلها مع الثقافة العربيّة والإسلاميّة، بقدر اغتنائها بتفاعلها مع بعضها البعض. فالثقافة أيّما ثقافة تستمدّ قوّتها من خارجها كما تحقّق إنسانيّتها من خلال تاريخيّتها.

يرفض سعيد التّأويلات الميتافيزيقيّة للثقافة بكلّ تجلّياتها. ليس الدّين هو الذي يسمح بالإبداع وتجاوز الممكنات، وتغيير الأوضاع البائدة. إنّّه بعكس ذلك يحافظ على

درجة عالية من الرضى، ويبرز مصالح البعض، ويدفع البعض الآخر إلى الانقياد والمطاوعة. كما أنه يعزل الظواهر عن سياقها التاريخي، وتلك هي حدود اللامعنى من منظور سعيد، حيث يتوقف الفكر البشري عن ممارسة نشاطه النقدي.

الهوامش:

- 1- إدوارد سعيد، تأملات في المنفى. ترجمة نائير ديب، دار الآداب-بيروت. ط الأولى 2004. ص 19 .
- 2- إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة صبحي حديدي، م. ع. للدراسات والنشر، بيروت. ط الأولى 1996. ص 125.
- 3- إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ص 1263 .
- 4- ويليام د. هارت، إدوارد سعيد والمؤثرات الدينيّة للثقافة، ترجمة قصي أنور الذبياني. هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط الأولى 2011. ص 07 .
- 5- غيرتز كليفورد. تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي. م. ع. للترجمة، بيروت. ط الأولى 2009. ص 16 .

6- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب. دار الآداب، بيروت، ط الثالثة 2004.

ص 10 .

7- نفسه، ص 70.

8- تزفيتان تودوروف، نحن والآخرون، ترجمة ربي حمود، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، ط الأولى

1998. ص 248 .

9- نفسه، ص 115 .

10- غيرتز كليفورد، مرجع مذكور، ص 15 .

11- جيرار لوكليرك، الاستعمار والانثروبولوجيا، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد، طرابلس. ط الأولى 2004. ص 148.

12- إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط الثانية

1984.. ص 215.

13- جيل دولوز، مــــ

الفلسفة.....

..... ص 110.

14- فوكو ميشال، الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي-بيروت، 1989-

1990. ص 07 .

15- كلود ليفي شتروس، العرق والتاريخ، ترجمة سليم حدّاد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.. ص 15 .

16- إدوارد سعيد، تعقيدات

على الاستشراق، ص 93.

17- آنيّا شيليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ترجمة وتقديم أحمد خريس وناصر أبو الهيجاء، ص 15.

18- إدوارد سعيد، تعقيدات

على الاستشراق، ص 102 .

19- نفسه، ص 102.

20- ويليام د. هارت، مرجع مذكور، ص 25.

21

-

نفسه

هـ

ص،

25

22- مايكل هاردت وأنطونيو نيغري، الامبراطوريّة، تعريب فاضل جنكر، ط 2002، الرياض، ص 179-

. 180

23- نفسه، ص 180.

24- ديفد هارفي، حالة ما بعد الحداثة، ترجمة محمد شيا، مركز

دراسات الوحدة العربيّة، بيروت. ط الأولى 2005. ص 24 .

25- ویلیام هارت، مرجع مذکور، ص 93-94.

26-إِدْوَارِد سَعِيد، الثقافَة

والامبريالية، ص 10.

29- جيارار لوكليرك" مرجع مذکور، ص 79 .

30- إدوارد سعيد، الثقافة

والامبرياليّة، ص 279-280.

31-نفسه، 280.

32- إبراهيم عبد الله، مرجع مذکور، ص 33 .

33- إدوارد سعيد، الثقافة

والامبريالية، ص 78.

34-علي بهداد، الرحالة المتأخرون، ترجمة ناصف أبو الهيجاء،

هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ط الأولى 2013. ص 26 .